أثر الحضارة العربية القديمة في كتاب العهد القديم عند اليهود

د. وحيد صفية*

(تاريخ الإيداع 3 / 2 / 2021. قبل للنشر في 10 / 6 / 2021)

□ ملخّص □

يرى بعض الدارسين أنَّ الجزيرة العربية هي المهد الأول لأبناء سام، ومنها انطلقت الموجات البشرية في سائر الأنحاء نتيجة الجفاف وانحباس المطر وتزايد عدد السكان الذين لم يكن أمامهم بدٌّ من سلوك طريق الهجرات إلى الأماكن الخصبة. وأوَّلُ قبيلة عربية هاجرت من جزيرة العرب في الألف الرابع قبل الميلاد استقرَّت في بلاد ما بين النهرين، وعُرِفَ هؤلاء المهاجرون بـ(الأكاديين) الذين شكَّلوا إمبراطوريةً قويةً مترامية الأطراف، امتدَّت من بلاد ما بين النهرين شرقاً حتى البحر المتوسط غرباً. وعندما تمرَّد عليهم اليهود الذين كانوا يقطنون بعض مناطق فلسطين هاجمهم الملك البابلي نبوخذ نصر سنة 587 قبل الميلاد، وسبى منهم أكثر من أربعين ألفَ نسمةٍ من يهود أورشليم إلى عاصمته بابل، ومكثوا هناك إلى العام 539 قبل الميلاد. وكان من بينهم الأمراء والكهنة والكتبة والمثقفون فبهرتهم عظمة بابل بقصورها ومعابدها وحدائقها، كما انبهروا كثيراً بتراث بابل الفكري والروحي والحضاري. وقد انعكس ذلك على كتابات اليهود فيما بعد، لاسيَّما أثناء تدوينهم لكتابهم المقدَّس، حيث بنى اليهود مجدهم على المدونات الحضارية القديمة لبلاد ما بين النهرين، وظهر تأثير آداب بلاد الرافدين على آداب العبرانيين، وهذا التأثير هو ما أردنا الكشف عنه في بحثنا هذا.

الكلمات المفتاحية: أثر، المدونات، التوراتية، الحضارة

* أستاذ – كلية الآداب والعلوم الإنسانية ــ قسم اللغة العربية، جامعة تشرين، اللاذقية ـ سورية.

The impact of ancient Arab civilization in the book of the Old Testament among the Jews

Dr. Wahid Safeiah*

(Received 3 / 2 / 2021. Accepted 10 / 6 / 2021)

□ ABSTRACT □

Some scholars believe that the Arabian Peninsula is the first cradle of the sons of Shem, and from it the waves of human beings started in all parts of the country as a result of drought, lack of rain, and an increase in the number of people who had no need to take the path of migrations to fertile places. The first Arab tribe to migrate from the Arabian Peninsula in the fourth millennium BC settled in Mesopotamia, and these immigrants were known as (Akkadians), who formed a powerful and sprawling empire that stretched from Mesopotamia in the east to the Mediterranean in the west. When the Jews who lived in some areas of Palestine rebelled against them, the Babylonian King Nebuchadnezzar attacked them in 587 BC, and more than forty thousand of the Jews of Jerusalem were taken as captive to his capital, Babylon, and they stayed there until the year 539 BC. Among them were princes, priests, scribes and intellectuals, and they were dazzled by the greatness of Babylon with its palaces, temples and gardens, and they were also greatly impressed by the intellectual, spiritual and cultural heritage of Babylon. This was reflected in the writings of the Jews later, especially during their writing of their sacred book, where the Jews built their glory on the ancient civilizational codes of Mesopotamia, and the influence of Mesopotamian literature on the literature of the Hebrews appeared, and this influence is what we wanted to monitor in our research.

Key words: impact, blogs, biblical, civilization

* **Professor , College of Arts and Humanities, Department of Arabic Language, Tishreen University, Lattakia – Syria.**

مقدِّمة:

إنَّ القصص التي كتبها اليهود في كتابهم المقدَّس، (أي: كتاب العهد القديم) استناداً إلى الروايات المتناقلة، ليست تاريخاً، وإنَّما فيها نفحةٌ تاريخية، ولا يمكن الركون إليها؛لأنَّ تدوينها لم يعتمد المنهج العلمي في التدقيق والتمحيص وتقصي الحقائق، كما هو شأن علم التاريخ الحديث، بل اعتمد على الأخبار المنقولة والقصص المتداولة، والمشاهدات الشخصية، وتداخلت فيها الأهواء الشخصية للمؤلفين، مما كان متداولاً شفاهةً في فلسطين والمناطق المجاورة.([1])

فطيلةَ العشرينَ قرناً الماضيةِ تمكَّن اليهودُ من تكريس الكثير من المفاهيم الخاطئة القائمة على التحريف والانتساب المزوَّر للحوادث والشخصيات التاريخية؛ من أجل أنْ يجعلوا لها امتداداً تاريخياً مرتبطاً بحضارات العالم القديم، وخاصةً الحضارات العربية القديمة بفروعها: العراقية والسورية. فأحبار اليهود اقتبسوا من تواريخ الشعوب المجاورة لهم، وهوَّدوا كل الأخبار والحكايات والقصص التي رأوا فيها فائدةً لهم بعد أنْ زوَّروها.

وبناء على ذلك فإنَّ تاريخَ اليهود القديم ـ الذي تضمنَّه كتاب العهد القديم بين دفَّتيه ـ وضعه كُتَّابٌ عاشوا في بابل بعد وقوع حوادثه بمئات السنين، واستندوا في رواياتهم هذه إلى قصص مروية تناقلتها أجيالٌ من أسلاف اليهود الذين كانوا قد تزاوجوا مع سكان البلاد الأصليين من كنعانيين وبابليين وآشوريين، وغيرهم. ففقدت قصصٌ كثيرةٌ أصولها الحقيقية؛ نتيجة خضوعها لتأثيرات يهودية غيَّرت الكثير من ملامحها الأصلية.

أهمية البحث وأهدافه

تأتي أهمية بحثنا هذا من خلالِ تسليطِ الضوء على ما تضمنته أسفار العهد القديم من قصص وأساطير وشرائع، وجدنا من خلال البحث والتقصي والمقارنة أنَّها تعود في أصلها إلى مدونات الشعوب القديمة التي احتك اليهود بهم خلال فترة تاريخية معيَّنة، كالحضارة البابلية التي نقل اليهود عنها معظم ما أوردوه في كتاب العهد القديم دون الإشارة إلى ذلك ، وبذلك نثبت بالدليل والبرهان أنَّ كَتَبَةَ العهد القديم لم يكونوا أولي فكرٍ مبدعٍ وخلاَّق كما يدعي اليهود، بل كانوا مقلِّدين، ومتأثرين بفكر غيرهم إلى حد كبير.

أمَّا منهجنا في هذا البحث فإنَّه يقوم على العرض والمقارنة والبحث والتدقيق بغرض الوصول إلى الحقيقة الكاملة قبل إطلاق الأحكام. فطبيعة البحث تقتضي الاعتماد على المنهجين التاريخي والمقارن بغية الوصول إلى الحقيقة المنشودة. فالمنهج التاريخي، كما هو معروف، يدرس الظاهرة في عصور مختلفة محاولاً الوقوف على ما أصابها من التطوُّر، والمنهج المقارن هو امتداد للمنهج التاريخي في أعماق الماضي السحيق. ([2])

العرض

المقتبسات اليهودية عن الحضارة البابلية والآشورية:

توصَّلَ العديد من العلماء إلى أنَّ ما تضمنته أسفار العهد القديم من قصص وأساطير وشرائع، إنَّما يرجع أصله إلى مدوَّنات قديمةٍ تعود في أصلها إلى البابليين (الأكاديين والآشوريين)، وقد اقتبس اليهود من هذه المدوَّنات ما ينفعهم، وحذفوا كل ما لم يلقَ استحسانهم.([3]) وقد تنوَّعت اقتباسات اليهود في مدوناتهم التوراتية فشملت مجالات عديدة، منها:

([1]) ـ يُنظر: السَّواح، فراس: الحدث التوراتي والشرق الأدنى القديم، نشر: دار علاء الدين، دمشق، الطبعة الثالثة، 1997م، ص 5.

([2]) ـ يُنظر: عبد التواب، د. رمضان، المدخل إلى علم اللغة ومناهج البحث اللغوي، الناشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، ط3، 1997م، ص 196، 198.

([3]) ـ يُنظر: إدوارد كيرا، كتبوا على الطين، ترجمة وتعليق: محمود حسن الأمين، مراجعة: علي خليل، نشر: مكتبة دار المتنبي، ط2، بغداد، 1964، ص 135 ـ 149.

أ ـ القانون والشريعة.

ب ـ الحكمة.

ج ـ القصص:

1 ـ قصة الطوفان.

2 ـ قصة ولادة موسى عليه السلام.

3 ـ قصة أيوب.

4 ـ قصة خروج آدم وحواء من الجنة.

د ـ الشيقل.

أ ـ القانون والشريعة:

إنَّ شريعة موسى عليه السلام فيها من الاقتباسات والمتشابهات من التراث والتشريع العراقي القديم الشيء الكثير. وقد اتضح ذلك من خلال المقارنة بين قانون حمورابي الذي عُثر عليه من قِبَل العالم الفرنسي (جاك دي مورغان) ما بين عام 1901 ـ 1902م في مدينة سوسة عاصمة عيلام منقوشاً على مسلة طولها 2.25متراً بالخط المسماري. ولدى مقارنة نص قانون حمورابي مع أسفار التوراة فوجِئ دي مورغان بمقدار الشبه الكبير بينهما، فخرج بنتيجة مفادها أنَّ كاتب القوانين التوراتية لا بدَّ أنَّه اقتبسَ نصوصه من قانون حمورابي، خصوصاً أنَّ حمورابي يسبق موسى عليه السلام بمئات السنين.([4])

نماذج من المشابهات بين قانون حمورابي وشريعة التوراة:

تتطابقُ بعض قوانين التوراة مع قوانين حمورابي، ومن ذلك مثلاً ما جاء في القانون(195) من قانون حمورابي، الذي ينص على أنَّه: (إذا وَلَدٌ ضَرَبَ والدَهُ فعليهم أنْ يقطعوا يدَهُ). ([5]) وهذا القانون يقابله في التوراة: (וּמַכֵּה אָבִיו וְאִמּוֹ מוֹת יוּמָת) = وضاربُ أبيهِ، وأُمِّهِ موتاً يُماتُ. ([6])

وينصُّ القانون (196) من قانون حمورابي على أنَّه: (إذا فقأ سيِّدٌ عينَ ابنِ أحدِ الأشراف، فعليهم أنْ يفقأوا عينه).([7])

ويقابله في النص التوراتي: (שֶׁבֶר תַּחַת שֶׁבֶר עַיִן תַּחַת עַיִן שֵׁן תַּחַת שֵׁן) = كَسْرٌ بدلَ كسرٍ، عينٌ بدلَ عينٍ، سنٌّ بدلَ سنٍّ.([8])

ويتجلَّى أثر قانون حمورابي أيضاً في قصة سيِّدنا إبراهيم عليه السلام؛ ذلك أنَّ إبراهيم تزوَّج من هاجر الجارية، خادمة زوجته سارة العاقر لينجب منها ولداً لسارة. وهذا القانون منصوصٌ عليه في قانون حمورابي في المادة(145) التي تقول: (إذا تزوَّجَ سيِّدٌ زوجةً ولم تلد له أولاداً، وقرَّرَ أنْ يأخذ جاريةً فلهذا الرجل أنْ يأخذ جاريةً، ويأتي بها إلى بيته. إنَّها امرأةٌ ثانيةٌ ولا يجوز أنْ تتساوى مع الزوجة).([9])

([4]) ـ يُنظر: قاشا، سهيل، بابل والتوراة، نشر: دار أبعاد، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1911م، ص 59.

([5]) ـ يُنظر: شريعة حمورابي، ترجمة: محمود الأمين، الطبعة الأولى، الناشر: شركة دار الوراق للنشر المحدودة، 2007م، ص 56.

([6]) ـ سفر الخروج 15/21.

([7]) ـ يُنظر: شريعة حمورابي،ص 62.

([8]) ـ سفر اللاويين 20/42.

([9])ـ يُنظر: شريعة حمورابي، ص 43 –44.

وفي التوراة ورد ما نصُّه: (וַתֹּאמֶר שָׂרַי אֶל-אַבְרָם، הִנֵּה-נָא עֲצָרַנִי יְהוָה מִלֶּדֶת- -בֹּא-נָא אֶל-שִׁפְחָתִי، אוּלַי אִבָּנֶה מִמֶּנָּה)= فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «هُوَذَا الرَّبُّ قَدْ أَمْسَكَنِي عَنِ الْوِلاَدَةِ. ادْخُلْ عَلَى جَارِيَتِي لَعَلِّي أُرْزَقُ مِنْهَا بَنِينَ».([10]) وبالتالي يمكن القول إنَّ إبراهيم في زواجه من هاجر طبَّقَ قانون حمورابي. ثمَّ إنَّ النزاع الذي حصل بين سارة وهاجر مذكورةٌ أسبابهُ في قانون حمورابي كما ورد في نص القانون المذكور آنفاً: (ولا يجوز أنْ تتساوى مع الزوجة). ومن جهتها تنصُّ التوراة على أنَّه (וַתֹּאמֶר שָׂרַי אֶל-אַבְרָם، חֲמָסִי עָלֶיךָ-אָנֹכִי נָתַתִּי שִׁפְחָתִי בְּחֵיקֶךָ، וַתֵּרֶא כִּי הָרָתָה וָאֵקַל בְּעֵינֶיהָ؛ יִשְׁפֹּט יְהוָה، בֵּינִי וּבֵינֶיךָ)=

وَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرَتْ مَوْلاَتُهَا فِي عَيْنَيْهَا. فَقَالَتْ سَارَايُ لأَبْرَامَ: «ظُلْمِي عَلَيْكَ! أَنَا دَفَعْتُ جَارِيَتِي إِلَى حِضْنِكَ، فَلَمَّا رَأَتْ أَنَّهَا حَبِلَتْ صَغُرْتُ فِي عَيْنَيْهَا. يَقْضِي الرَّبُّ بَيْنِي وَبَيْنَكَ».([11]) وبالتالي تظلُّم سارة قانون حسب شريعة حمورابي.

ويبقى قانون حمورابي موجوداً في تصرُّف إبراهيم(ع) مع هاجر، بعد أنْ غضبت منها سارة. إذ إنَّه لم يَبِعْ هاجر حسب عادة الأسياد مع العبيد، بل اكتفى بطردها من المنزل. والسبب في ذلك أيضاً يمكن أنْ نفسِّره اعتماداً على قانون حمورابي نفسه، حيث تنصُّ المادةُ (146) من هذا القانون على أنَّهُ(إذا سيِّدٌ تزوَّج زوجةً، وأعطت لزوجها جاريةً فولدت أولاداً فإنَّ هذه الجارية تتساوى بعد ذلك مع سيدتها؛ لأنَّها ولدت أولاداً. ولا يجوز لسيدتها أنْ تبيعها بالفضَّة أو تعدّها من الإماء).([12]) لذلك طلبت سارة من إبراهيم فقط أنْ يقوم بطرد هاجر مع ابنها كما جاء في الفقرة (10/21) من سفر التكوين: (וַתֹּאמֶר לְאַבְרָהָם גָּרֵשׁ הָאָמָה הַזֹּאת וְאֶת - בְּנָהּ)= "فقالت سارة لإبراهيم: اطرد هذه الخادمة وابنها". أي أنَّه بعد ولادة إسماعيل(ع)، وحسب قانون حمورابي، لم يعد باستطاعة إبراهيم أنْ يبيع هاجر أو يعاقبها؛ لذلك كان الحل الوحيد أمام سارة أنْ تطردها من المنزل. ولعلَّ كل ما تقدَّم يدلُّ على أنَّ كاتب التوراة كان مطلعاً بصورة وثيقةٍ على العادات والتقاليد والقوانين، والتراث الفكري والروحي لبلاد الرافدين، وقد تأثَّر بكل ذلك أثناء قيامه بكتابة التوراة.

ب ـ الحكمة:

لقد تبيَّن نتيجة المكتشفات الأثرية، والتحقيق العلمي الدقيق أنَّ الحكمة نبتت على ضفاف الرافدين، ونمت وترعرعت حتى امتدَّت فروعُها إلى الشعوب المجاورة وما بعدها، بدءاً بالسومريين، ومروراً بالأكاديين والبابليين، وانتهاءً بالآشوريين الذين في عهدهم أينعتِ الحكمةُ وازدهرت على لسان (أحيقار) وزير الملك الآشوري سنحاريب. ومن حكمة بلاد الرافدين استقى اليهود الأسفار الحكميةَ في كتابهم المقدَّس أي كتاب العهد القديم. **فمن هو أحيقار؟**

أحيقار هو وزير الملك الآشوري سنحاريب(704 ـ 671 ق.م)، كان يتصف بالحكمة والرأي السديد، وهو على ثروته الطائلة ومكانته الرفيعة لم يكن سعيداً لأنَّه لم يرزق بولد يرثه ويأخذ عنه الحكمة والسمعة الحسنة.فيتبنى ابن أخت له اسمه(نادان)، يعلمه الأدب والعلم والفلسفة ثم يضعه مكانه من الملِك، فينصحه ويسدي إليه خلاصة تجاربه في الحياة بأمثالٍ وحِكَمٍ يبدؤها بكلمة: يا بني، ولكن نادان هذا يخيِّبُ أمل خاله أحيقار ويدبِّر له مكيدة تغضب الملك عليه

([10]) ـ سفر التكوين 2/16.
([11]) ـ سفر التكوين 16/ 4 ـ 5
([12]) ـ يُنظر: شريعة حمورابي، ص 44.

فيأمر بقتله. لكنَّ الرجل الذي أوكل إليه بقتله لاينفِّذُ أمرَ الملك، وإنما يخفيه عن الأنظار، ويقتلُ بدلاً منه أحدَ المحكوم عليهم بالإعدام. ومع مرور الوقت تتبين للملك حقيقة الأمر، فيأمر بإعادة أحيقار الذي ينقذُ مليكه سنحاريب من مآزق دبلوماسية كثيرة، ويحلُّ ألغازاً عويصة لا يقدرُ عليها أعظمُ الحكماء. وبدلاً من أنْ ينتقم أحيقار من ابن أخته نادان يكتفي بسجنه في بيته ليلقي على مسامعه من جديد حِكَمَهُ وأمثاله. ([13])

أثرُ حِكْمَةِ أحيقار في كتاب العهد القديم:

إنَّ مقابلة أمثال العراق القديم ـ ممثَّلةً بأمثال أحيقار حَكِيمِ نينوى ـ بالأمثال والحِكَمِ الموجودة عندَ العبرانيين ترينا أنَّ كُتَّابَ أسفار العهد القديم كانوا يعرفون هذه الأمثال والحِكَم. ونظراً لضيق المساحة المخصَّصة للبحث فإنَّنا سنختار بعض الأسفار التي نجد فيها عناصرَ واضحةً من حِكْمَةِ أحيقار، ومن هذه الأسفار:

1 ـ سفر الأمثال:

أحد أسفار العهد القديم، يتكوَّن من واحد وثلاثين إصحاحاً يحتوي على مجموعة من الحِكَم الأخلاقية والعملية. ويعودُ قسمٌ من هذه الحِكَم إلى عهد سليمان، وقسمٌ ثانٍ إلى زمن حزقيا، وسائر ما تبقى يعود إلى 480 ق.م وهو لكتبةٍ مجهولين. ويحتلُّ سفرُ الأمثالِ مكاناً بارزاً على المستوى الشعبي، وفي أوساط العلماء. وقد صنَّف قاموس الكتاب المقدَّس أمثال سليمان بأنَّها أشهر مجموعة أمثال في العالم.([14]) وقد ورد في هذا السفر نصوص غزيرة جداً تتفق وحكمة أحيقار في مواضيع شتَّى نذكر منها ما ورد في الإصحاح (10/21) بخصوص الجار الصالح وتجنب الخصام، الذي يقول: (טוֹב שָׁכֵן קָרוֹב מֵאָח רָחוֹק)= جارٌ قريبٌ خيرٌ من أخٍ بعيد). وهذا المثل يقابله من حكمة أحيقار قوله: (بِرِيْ: طُب رُحمُا دقَرِيب مِن اَحُا درَحِيق) = يا بني، الصديق القريب أفضل من الأخ البعيد. ([15])

وفي مجال تربية الأولاد وتأديبهم نجد في سفر الأمثال (13/ 24): (חוֹשֵׂךְ שִׁבְטוֹ שׂוֹנֵא בְנוֹ וְאֹהֲבוֹ שְׁחָרוֹ מוּסָר) = مَنْ وفَّر عصاهُ فهو يبغضُ ابنَه، والذي يحبه يبكِّر إلى تأديبه. ويقابله في أمثال أحيقار: (بِرِيْ: كبُوش برُك عَد وُو طَلِيُا عَد لُ نِعشِن مِنُك ونِمرَد علَيك وَبكُل سُورَحُنُوْوْي ةِتنَكَف) = يا بني: اضغط على ابنك وهو بعد ولد صغير، حتى لا يغلبكَ (فيما بعد) ويتمرَّد عليك، وتخجل من كلِّ أفعاله السيِّئة).([16])

وفي الحديث عن صفات المرأة الشريرة نجد في سفر الأمثال (25/6 ـ 26): (אַל־ תַּחְמֹד יָפְיָהּ בִּלְבָבֶךָ וְאַלֹה תִּקָּחֲךָ בְּעַפְעַפֶּיהָ כִּי בְעַד־ אִשָּׁה זוֹנָה עַד־ כִּכַּר לָחֶם

([13])ـ يُنظر: قاشا، سهيل: حكمة أحيقار وأثرها في الكتاب المقدَّس، دار المشرق، بيروت، الطبعة الأولى، 1996م، ص 10 ـ11. وينظر أيضاً: عبد التواب، د. رمضان، في قواعد الساميات، نشر: مكتبة الخانجي، القاهرة، 1981م، ص 173ـ 222.

([14]) . قاموس الكتاب المقدَّس، صدر عن دار مكتبة العائلة، بإشراف رابطة الكنائس الإنجيلية في الشرق الأوسط، الطبعة الرابعة عشر، طبع بمطبعة الحرية . بيروت، لبنان، 2001م، ص:836.

([15]) ـ يُنظر: هبو، أحمد ارحيم، المدخل إلى اللغة السريانية، منشورات جامعة تشرين، كلية الآداب، 1989 ـ 1990م، ص 264ـ 265.

([16])ـ المرجع السابق، ص 258ـ 259.

וְאִשָּׁת נָפָשׁ יִקָּרָה תָּצוּד). = (لا تَشْتَهِيَنَّ جَمَالَهَا بقلبكَ ولا تأخذك بِهُدُبِهَا؛ لأنَّه بسبب امرأة زانية يفتقرُ المرءُ إلى رغيف خبز، وامرأةُ رجلٍ آخر تَقْتَنِصُ النفسَ الكريمةَ). وهذا المثل يقابله من حكمة أحيقار قوله: (بِرِيْ:بُـَر شْوفرُآ دَآنْـةُآ لُ ةِآزَل ولُ ةِرجِيؤ بلِبُك مِطُّل دشْوفرُآ دَآنْـةُآ طْعمُؤ ومِلَة فُومُؤ وُدرُؤ) = يا بني، لا تجرِ وراءَ جمالِ المرأة ، و لا تشتهيها بقلبك، وذلك لأنَّ جمال المرأة في فطنتها، وزينتها في (حلو) كلامها. ([17])

وبخصوص معاشرة الحكماء نجد في سفر الأمثال: (20/13): (הוֹלֵךְ אֶת – חֲכָמִים יֶחְכָּם וְרֹעֶה כְסִילִים יֵרוֹעַ) = مُسَايرُ الحكماءِ لن يفسُدَ، ومؤانسُ الجُهَّالِ يصيرُ شريراً). هذا المثل يقابله من حكمة أحيقار قوله: (بِرِيْ:عَم حَكِمُا لُ ةِسرُّوح وعَم سُرُّوحُا لُ ةِةحَكَم).([18]) = يا بني، إنَّك لن تضل مع الحكيم(إذا صاحبته)، كما إنَّك لن تصبح حكيماً مع الجاهل.

2 ـ سفر الجامعة:

وهو السِّفرُ الحادي والعشرون من كتاب العهد القديم، ومعنى لفظة " الجامعة " في أصلها العبري(קֹהֶלֶת)هو:المتكلِّم في الاجتماع. يُنسبُ هذا السِّفرُ إلى سليمان،إذ يشير إليه في أولِّ السفر. ويقال إنَّهُ كتبه في شيخوخته، وفيه يروي اختباراته للحياة، ويفتتحه بقوله: (باطلُ الأباطيل الكلُّ باطل). وهو لا يعتقد بأنَّ الخير أو الشر يلقيان جزاءهما في هذا العالم، وينتهي السفر بوجوب تقبُّل الحياة كما صنعها الله. وباختصار يمكن القول إنَّ السِّفر عبارةٌ عن خواطر فلسفية.وقد كُتِبَ النصُّ الأصلي لهذا السفر بالعبرية، ووجد علماء الكتابِ المقدَّس نصوصاً بين فصوله لا يمكن أنْ يكون سليمان كاتبها، ويرتقي عهد هذه النصوص إلى حوالي القرن الثالث قبل الميلاد، أو إلى العهد اليوناني(204 ـ 200 ق.م).([19]) وفي سفر الجامعة نجد خمسة نصوص على الأقل تتفقُ وبعضَ ما ورد في حكمةِ أحيقار، نذكرُ منها:

أ ـ ما يتعلُّق بالمرأة الشريرة، إذ ورد في سفر الجامعة(26/7): (וּמוֹצֵא אֲנִי מַר מִמָּוֶת אֶת – הָאִשָּׁה אֲשֶׁר הִיא מְצוֹדִים וַחֲרָמִים לִבָּהּ אֲסוּרִים יָדֶיהָ טוֹב לִפְנֵי הָאֱלֹהִים יִמָּלֵט מִמֶּנָּה וְחוֹטֵא יִלָּכֵד בָּהּ)=(فوجدتُ أمرَّ من الموت المرأة التي هي شباك وقلبها أشراك ويداها قيود. الصالح قدَّام الله ينجو منها. أمَّا الخاطئ فيؤخذ بها). هذا المثل يقابله من أمثال أحيقار قوله: (بِرِيْ:لُ ةِرِيم عَينَيَّك وةِحزِآ آَنْـةُآ دَسقِيلُ وَكحِيلُ لُ ةِرجِيؤ بلِبُك مِطُّل دِآن ةِةِلُ لُؤ كُّلمِدِم دِآية بِايدَيَّك مِدِم يُّوةرُ ُنُا بُؤ لُ مِشكَح آَنْـة وحطُؤُآ لَ لُؤُآ ةحُّوب) = يا بني: لا ترفع عينيكَ وتتطلَّع إلى المرأة المتبرِّجة والمتكحِّلة (فتؤخذ بمظهرها) وتشتهيها

([17]) ـ المرجع السابق، الصفحةُ نفسها.

([18]) ـ المرجع السابق، ص 256ـ 257.

([19]) ـ يُنظر: قاشا، سهيل، بابل والتوراة،ص 81.

بقلبك، ذلك لأنَّك لو بذلتَ لها كلَّ ما تملك يداك فإنَّك لن تجد فيها(خصلةً) حسنةً و(إنَّك لو فعلتَ فإنَّك) ترتكبُ إثماً عند الله. ([20])

ب ـ النظرة إلى الجاهل واستهتاره: فقد جاء في سفر الجامعة(5/7) ما يلي: (טוֹב לִשְׁמֹעַ גַּעֲרַת חָכָם מֵאִישׁ שׁוֹמֵעַ שִׁיר כְּסִילִים)= سَمَعُ الانتهارِ من الحكيم خيرٌ للإنسانِ من سمعِ غناءِ الجُهَّال. هذا المثل يقابله من أمثال أحيقار قوله: (بِرِيْ:طُب لمَؤفُكُو كِافِا عَم جَبرُآ حَكِمُا مِن دَلمِشةُآ حَمرُآ عَم جَبرُآ سَبلُ)= يا بني إنَّ نقل الحجارة مع الرجل الحكيم أفضل من احتساء الخمر مع الرجل الجاهل. ([21])

ج ـ النظرة إلى الغِنَى والفَقْر: فقد جاء في سفر الجامعة(16/9) ما يلي: (וְאָמַרְתִּי אֲנִי טוֹבָה חָכְמָה מִגְּבוּרָה וְחָכְמַת הַמִּסְכֵּן בְּזוּיָה וּדְבָרָיו אֵינָם נִשְׁמָעִים)= فقلتُ الحكمةُ خيرٌ من القوَّة ، أمَّا حكمةُ المسكين فمُحْتقرةٌ وكلامهُ لا يُسمع. ونظير هذا المثل عند أحيقار قوله: (بِرِيْ: مَن دِآيدِؤ مَليُا مِةقرِآ حَكِيمُا ومِيَقرُآ ومَن دِآيدِؤ حَسِيرُآ مِةقرُآ مَسكلُنُا و سَفلُ)= يا بني: من كانت يدهُ ممتلئة(بالأموال) يدعى حكيماً ونبيلاً، وأمَّا من كانت يدهُ فارغة فإنَّه يدعى مخطئاً ورذيلاً.([22])

ج ـ القصص:

إنَّ نماذج التشابه أو التطابق كثيرةٌ بين القصص التي وردت في كتاب العهد القديم، وبين تلك التي وردت في مصادر بلاد الرافدين. والأمر الذي لا مجال للشك فيه هو أنَّ حضارة بلاد الرافدين وجدت قبل ظهور موسى عليه السلام، وقبل كتابة التوراة الحالية بآلاف السنين. وقد شمل هذه التشابه أو التطابق معظم ما جاء في التوراة، ولا سيَّما الأساسيات التي بُنيت عليها، مثل: قصة الطوفان، وقصة الخلق، وقصة آدم وحواء، وغيرها من قصص وشرائع وأحكام. وهذا التشابه هو في واقعه نقلٌ واستنساخٌ، يصلُ حدَّ السرقةِ الأدبيةِ أكثر من كونه اقتباساً طالما أنَّ كاتبي هذه القصص جاؤوا بها من الأمم الأخرى ونسبوها لأنفسهم. وللتأكيد على صحة ما نذهب إليه لا بدَّ من إجراء مقارنات للقصص التي وردت في كتاب التوراة والعهد القديم مع ما يشابهها أو يتطابق معها من حضارة بلاد الرافدين، ومن هذه القصص:

1 ـ قصةُ الطوفان:

كان الاعتقاد السائد في أوروبا أنَّ النصوص التوراتية هي المصدر الوحيد لقصة الطوفان، وأنَّه لا يوجد مصدرٌ آخر لهذا الحدث سوى تلك النصوص، إلاَّ أنَّ الأمر قد تغيَّرَ تماماً عندما أعلن عالم الآثار البريطاني جورج سميث في ديسمبر 1872م ـ في اجتماع لجمعية الكتاب المقدَّس ـ أنَّه قد كشفَ بين الألواح الآشورية في المتحف البريطاني عن رواية الطوفان. وكان ذلك هو اللوح الحادي عشر من التنقيح الآشوري لملحمة جلجامش. لم يلبث سميث بعد هذا الإعلان الأول أنْ نشر كتابه (الرواية الكلدانية عن الطوفان) ومعها سرد مجمل قصة جلجامش، ولقي هذه الأمر اهتماماً واسعَ النطاق؛ وذلك نظراً لتشابه الرواية ـ بدرجة كبيرة ـ مع ما جاء بنصوص الكتاب المقدَّس. لكنَّ اللوح الخاص بالطوفان نفسه كانَ ناقصاً، ولهذا تجدَّد البحث عن مزيد من الألواح. وقد أسهمت صحيفة (الديلي تلغراف)

([20]) ـ يُنظر: هبو، أحمد ارحيم، المدخل إلى اللغة السريانية، ص 254 ـ 255.

([21]) ـ يُنظر: المرجع السابق، ص 257.

([22]) ـ يُنظر: هبو، أحمد ارحيم، المدخل إلى اللغة السريانية، ص 262 ـ 263.

بدعم مالي من أجل مزيد من الحفريات التي كان جورج سميث يجريها في مدينة (نينوى) العراقية لحساب المتحف البريطاني. وقد عثر سميث ـ بعد فترة قصيرة من وصوله إلى نينوى ـ على السطور المفقودة من وصف الطوفان، وهو الوصف الذي كان عندئذٍ ـ ولا يزال حتى اليوم ـ أكثر أجزاء ملحمة جلجامش سلامةً واكتمالاً. ([23])

ولم يكن اللوح الحادي عشر من ملحمة جلجامش هو المصدر الوحيد لقصة الطوفان، بل عُثر أيضاً على قصة بابلية مطوَّلة، عُرفت بين الباحثين باسم أسطورة (أترا ـ حاسس) وتدور أساطير الطوفان البابلية والسومرية حولَ غضب الآلهة على بني الإنسان، واتخاذها قراراً بتدمير البشرية دماراً شاملاً؛ لأنَّها لم تصن ما منحتها الآلهةُ إياه، بل أخذت تنشر الفساد في الأرض، ولكن ـ رغم هذا ـ يظهر من بين الآلهة إله محبٌّ للجنس البشري، مشفقٌ عليه من هذا الفناء، فرأى ـ ومعه بعض الآلهة ـ أنَّه من الحكمة البقاء على الصالح من البشر دون الطالح.

مضمون القصة البابلية:

تبدو قصة الطوفان البابلية لأولِّ وهلةٍ وكأنَّها أُقحمت على أحداث ملحمة جلجامش، ولكن وبنظرة متعمِّقة نجد أنَّ أحداث الطوفان جاءت لتؤكِّدَ الفكرة الفلسفية ذاتها التي دارت حولها ملحمة جلجامش. بطل قصة الطوفان البابلية هو جلجامش، وهو بطل مدينة(أوروك)، وكان شديدَ الولع بتحصين مدينته، وإعادة تخطيطها حتى تظهر في أحسن صورةٍ، وكانت وسيلته في هذا تسخير أهل أوروك، فاستنجدوا بالآلهة، فخلقت له الآلهةُ (أنكيدو) ليكون له خلاً وصديقاً يشغله عن أهل أوروك، فيقوم جلجامش مع صديقه أنكيدو بمغامرات شتَّى، ولكن فجأة يموت أنكيدو فيحزن عليه جلجامش حزناً لا يضاهيه حزنٌ، ويخشى جلجامش الموت ويسير في البراري باحثاً عن الخلود الدائم الذي لا يدنو منه الموت. وبعد رحلةٍ طويلةٍ يقطعها جلجامش في الصحارى والبراري ، وهو يرتدي جلود الحيوانات يصل إلى جده (أوتو نبشتم) بطل الطوفان البابلي حيث أسكنته الآلهة في أرض دلمون.

كان هدف جلجامش من مقابلة (أوتو نبشتم) هو معرفة سر الخلود الذي حصل عليه، لعلَّه يستطيع هو الآخر أنْ يحصل عليه، فينأى عن الموت وأهواله، ولا يتجرعها مثلما تجرعها صديقه أنكيدو. بعد ذلك يبدأ (أوتو نبشتم) في إطلاع جلجامش على أحداث الطوفان، فالطوفان هو نقطة البداية لِـ(أوتو نبشتم) على طريق الخلود الدائم. فقد اتخذت الآلهة قراراً بحدوث الطوفان؛ وذلك انتقاماً من الجنس البشري الذي عاث في الأرض فساداً، إلاَّ أنَّ أحد الآلهة، وهو الإله (إيا) يشفق على الجنس البشري من هذا الدمار فيخاطب (أوتو نبشتم) من خلف الجدار، ويخبره بما سيحدث، ويأمره ببناء سفينة، ويعرِّفه مقاساتها، وطريقة بنائها، ومن سيركب معه فيها، كما حدَّد له الوقت الذي سيدخل فيه السفينةَ.

بعد ذلك يأتي الطوفان، الذي تصفه نصوص القصة البابلية بصورة تدخل الهلع في القلب، ومن شدة أهواله تتحطَّم الأرضُ الفسيحة كالجرَّةِ، وحتَّى الآلهة ذعروا من عباب الطوفان، وبعد أنْ يهدأ الطوفان يأخذ (أوتو نبشتم) في إرسال الطائر تلو الآخر كي يتأكَّد من انحسار المياه، وعندما تأكَّد من هذا خرج هو ومن معه من السفينة. بعد ذلك نرى الآلهة وهم يوجهون اللوم إلى الإله (إنليل)؛ لأنَّه هو صاحب هذا القرار، وأنَّه كان عليه عقاب المسيء من البشر بدلاً من وضع الجميع في سلة واحدة، وفي نهاية القصيدة تنعمُ الآلهة على (أوتو نبشتم) وزوجته بالخلود. ذلك الخلود

([23]) ـ يُنظر: ساندرز، ملحمة جلجامش، ترجمة: محمد نبيل نوفل، وفاروق حافظ القاضي، دار المعارف، القاهرة، 1970م، ص 11 وما بعدها.

الذي يبحث عنه جلجامش ولن يستطيع أنْ يحصل عليه؛ لأنَّ ما حدث لن يتكرَّر، فالآلهة لن تجتمع إلاَّ لحدث جلل شبيه بهذا الطوفان، وهذا يقع في طور المستحيل.

قصة الطوفان في التوراة:

جاءت قصةُ الطوفان في التوراة في الإصحاحات من السادس إلى الثامن من سفر التكوين. وتبدأ القصة بالحديث عن زيادة الناس وكثرتهم على الأرض، ثمَّ كثرةُ شرِّ الإنسان في الأرض. فأراد الله أنْ يمحو الإنسان، وذلك باستثناء نوح الرجل البار، فيخبره الله بخبر الطوفان، ويعلِّمه كيفية بناء السفينة، وأبعادها الهندسية، ويأمره أنْ يدخل فيها هو وبنوه وامرأته، ونساء بنيه، ومعه بعض الكائنات. ففعل نوحٌ ما أمرهُ الله، ثمَّ جاء الطوفان الذي أسهبت التوراة في وصفه. وبعد ذلك ينتهي الطوفان وتستقرُّ السفينة على جبل (أراراط) فيأخذ نوحٌ في إرسال الطير(الحمامة) ليتأكَّد من انحسار الطوفانِ تماماً، وبعد ذلك يخرج نوحٌ وبنوه: حام، ويافث، وسام. ثُمَّ تخبرنا النصوص كيف أنَّ الله قد بارك سام دون باقي أولاد نوح. والطوفانُ بهذه الصورة ـ وطبقاً لنصوص التوراة ـ هو طوفانٌ عالميٌّ، أي محا الإنسان عن كل وجه الأرض. ([24])

مقارنة بين النص البابلي والنص التوراتي للطوفان: ([25])

إنَّ التشابه بين النص البابلي والنص التوراتي فيما يتعلَّق بالطوفان يدعو إلى كثيرٍ من التأمل والتفكير، ذلك أنَّ مؤلفي نص الطوفان التوراتي اعتمدوا بشكل واضح على النص البابلي مع بعض التعديل والتغيير، ومعظم التعديلات تتعلَّق بشخصية الإله الرئيس في القصة. فبينما تزدحم الرواية البابلية بالآلهة المتناقضة أهواؤها ورغباتُها يتفرَّدُ (يهوه) بالفعالية الرئيسية في الرواية التوراتية. وفيما عدا ذلك فإنَّ الرواية التوراتية تتبع المخطط العام نفسه الذي أُسِّست عليه الرواية البابلية، ومن ذلك :

1 ـ تتفق الروايتان التوراتية والبابلية بأنَّ سبب الطوفان هو ما ارتكبه البشر من أوزار.

2 ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على أنَّ بطل الطوفان قد أُعْلِمَ مسبقاً بحدوث الطوفان، وأنَّ هذا الإعلام كان من جهة إلهية.

3 ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على صنع أنَّ السفينة كان أمراً إلهياً .

4 ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على علامة بدء الطوفان، وأنَّ بطل الطوفان قد أُعطي علامةً يعرف من خلالها أنَّ الطوفان على وشك الوقوع.

5 ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على أنَّ ركَّاب السفينة كانوا من البشر والحيوان.

6 ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على أنَّ سبب الطوفان هو نزول الماء من السماء وانبثاقه من باطن الأرض، وشدة العواصف التي أوصلت الموج إلى أعلى درجاته حتى إنَّه كان كالجبال.

7ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على أنَّ انتهاء الطوفان قد حدث فجأة دون مقدِّمات.

8ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على أنَّ السفينة قد استقرَّت على جبل، وإنْ كان ثمَّةَ خلاف بينهما حول اسم هذا الجبل.

([24]) ـ يُنظر: سفر التكوين من الإصحاح السادس إلى الإصحاح الثامن.

([25]) ـ لمزيد من التوسع يُنظر: السواح، فراس، مغامرة العقل الأولى، نشر دار الكلمة، دمشق، 1988م، ص 185 ـ 195. ويُنظر أيضاً : أبو السعود، صلاح، قصة الطوفان، نشر: دار النافذة، الجيزة، مصر، الطبعة الأولى، 2009م، ص 155ـ 183.

9ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على أنَّ الآلهة هي من قرَّر أمر الطوفان، وهي في المصادر التوراتية ممثلة بالإله(يهوه) ، وفي المصادر البابلية ممثلة بمجمع الآلهة.

10 ـ تختلف المصادر التوراتية والبابلية حول مدة الطوفان، فهو في المصادر البابلية سبعة أيام، وفي المصادر التوراتية أربعون ليلة كما ورد في الإصحاح السابع من سفر التكوين، ومئة وخمسون يوماً كما وردت في الإصحاح الثامن من السفر نفسه.

11ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على إرسال الطيور لمعرفة فيما إذا كان الماء قد انحسر عن جميع الأرض.

12 ـ تتفق الروايتان البابلية والتوراتية على تقديم الذبائح شكراً وعرفاناً للآلهة بعد انتهاء الطوفان.

ولعلَّه من خلال ما تقدَّم نجد أنَّ الهيكل العام للرواية التوراتية ينطبق بكل خطوطه العريضة، وبكثير من تفاصيله على النص البابلي، حتَّى إنَّ بعض التعابير تكاد تكون منقولةً بحرفيتها. الأمر الذي يدفعنا إلى ترجيح الرأي القائل بأنَّ كُتَّاب التوراة ـ فيما يتعلَّق بالطوفان ـ اعتمدوا على النص البابلي في كتابة نصِّهم التوراتي.

2 ـ قصة ولادة موسى عليه السلام:

من يقرأ قصة موسى عليه السلام في الإصحاح الثاني من سفر الخروج في كتاب العهد القديم، واللوح الذي سُطِّرت فيه نشأة الإمبراطور سارجون(شاروكين) الأكادي مؤسس مدينة أكاد(2334 ـ 2279 ق.م) يلاحظ الشبه العميق في ولادة ونشأة هذين الرجلين. وهذا الشبه بين القصتين يتخطَّى الألفاظ والصور إلى الأسلوب، حيث صياغة الجمل القصيرة، والفكرة المختصرة. ولتأكيد هذا الشبه لا بدَّ لنا من سرد قصتي الرجلين كي تتسنَّى لنا المقارنة بينهما.

أولاً ـ قصة سارجون الأكادي(شاروكين):

تقول الأسطورة إنَّ سارجون الأكادي (2334 ـ227) ق.م وُلِدَ لأمٍّ كانت رقيقاً(جارية)، وقد حملت به سراً، وعند ولادته وضعته في سلة من البردي، وأغلقت فوهة السلة بالقار،وألقته في نهر الفرات، ولكن النهر لم يغرقه، فانتشله أحد السقائين واسمة (أكي) ورباه كابنه، وجعله يعمل بستانياً عنده، وعندما كَبُرَ عَمِلَ ساقياً عند ملك (كيش) إلى أنْ جاءته الفرصة السانحة فقتل سيدَهُ، واستلم المُلكَ بدلاً منه، وحكم خمسةً وأربعينَ سنةً.([26])

ثانياً ـ قصة موسى عليه السلام:

تقول القصة إنَّ الفرعون الذي ولد موسى في زمنه رأى في منامه أنَّ زوال ملكه سيكون على يد فتى من بني إسرائيل، فاستشار وزراءَهُ في الأمر فأشاروا عليه أنْ يجعل حرساً على النساء الحبالى، فكلَّما أرادت امرأة أنْ تضعَ وليدها تنقلُ إلى قصر الفرعون وتكون ولادتها هناك، فإنْ كان المولود ذكراً قتله وإنْ كانت أنثى تركها. ففعل الفرعون ذلك حتى قتل عدداً كبيراً من الأطفال. ويبدو أنَّ امرأة عمران (أم موسى) أخفت حملها عن الفرعون وحاشيته، وعندما تمَّ حملُها وضعت مولودها، فكان ولداً وسيماً، فخبأته ثلاثة أشهر عن الأعين، ولما لم يكن بإمكانها أنْ تخبئه أكثر من ذلك، وضعته في صندوق وطلته بالزفت وألقت به في نهر النيل، وطلبت من أخته أنْ تراقبه، ويبدو أن ابنة فرعون ـ حسب الرواية التوراتية ـ كانت تغتسلُ على شاطئ النيل مع جواريها، فرأت الصندوق فأمرت بإخراجه، فإذا في داخله طفل رضيع يبكي، فأشفقت عليه وأمرت بإحضار مرضعةٍ له، ودعت اسمه موسى؛ وذلك لأنها ـ كما تقول ـ انتشلته من الماء. ([27])

([26]) ـ يُنظر : قاشا، سهيل: أثر الكتابات البابلية في المدونات التوراتية، نشر: بيسان للنشر والتوزيع، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، 1998م، ص 208 ـ 213.

([27]) ـ يُنظر: سفر الخروج 2/2.

من خلال قراءة النصين الأكادي والتوراتي نجد أنَّ نقاط التلاقي والتشابه أكثر من نقاط الاختلاف. فلعلَّ أهم القواسم المشتركة بين القصتين تتجلَّى في الأمور التالية:

1 ـ إنَّ ولادة بطلي القصتين تمَّ بشكل سرِّي يكتنفه الغموض، ولعلَّ السبب الحقيقي وراء ذلك هو إضفاء الغموض على شخصية كل منهما.

2 ـ إنَّ دور الأب في القصتين هامشيٌّ، بل هو غائب.

3 ـ كلٌّ من الطفلين بعد ولادته يوضع في سلَّة أو صندوق من البردي مطليٍّ بالزفت، ويُلْقَى به في النهر.

4 ـ في كلٌّ من القصتين يتمُّ انتشال الطفل وتربيته حتى يَكْبُرَ ويصبح شاباً.

5 ـ كلٌّ من الطفلين يكون له شأنٌ كبيرٌ عندما يَكْبُر. فـ(سارجون) الأكادي يصبح رجلاً شهيراً وقائداً كبيراً، ورئيساً على أمَّة كبيرةٍ، بنى المدن، وأنشأ الحضارة التي كان لها شأنها في معظم أنحاء الشرق القديم. وموسى ـ كما هو واضح من سفر الخروج، وباقي أسفار التوراة هو مؤسس دين، وباني أمَّة، ومعلِّمٌ عظيم، فهو خليقٌ بأنْ يكون مثل سارجون الأكادي وأعظم.

ولا ننسى هنا أنَّ مؤلفي التوراة كانوا يعرفون آداب بلاد ما بين النهرين، وكانوا متأثرين بها بحكم سبيهم إلى بابل؛ لذا ليس غريباً أنْ يأخذوا منها ما يناسبُ آدابهم وتاريخهم بعدما نقلوه وجعلوه يوافق معتقداتهم ورؤيتهم الخاصة إلى التاريخ العام.

ومَّما يدعم رأينا في أنَّ القصة التوراتية بشان ولادة موسى عليه السلام منقولة عن حضارات الشعوب الأخرى، هو تلك الدراسة التي قام بها سيجموند فرويد عالم التحليل النفسي المعروف، حيث درس هذه القصة قبيل الحرب العالمية الثانية وخرج بنتيجة مفادها أنَّ موسى لم يكن يهودياً بل كان مصرياً. ورأى فرويد أنَّ ثمَّة تشابهاً بين قصة ميلاد موسى، وميلاد عدد من العظماء في العالم القديم أمثال: سارجون الملك الأكادي الذي ذكرناه آنفاً، وروميلوس الإيطالي الذي بنى روما، وأوديب اليوناني الذي وردت قصته في الأساطير اليونانية.

ففي كل هذه الحالات كان الطفل ـ خوفاً على حياته عند مولده ـ يتم تهريبه من بيت عائلته، ويقوم آخرون بتربيته، ثمَّ يعود بعد ذلك إلى عائلته الحقيقية، إلاَّ أنَّ قصة موسى التوراتية تختلف عن تلك القصص في نقطة واحدة، فبينما كان الطفل في جميع الحالات آنفة الذكر يهرب من القصر الملكي لتقوم العائلة الفقيرة بتربيته، فإنَّه في قصة موسى يهرب من الأسرة الفقيرة (وهي أسرة العبرانيين) إلى القصر الملكي، وقد فسَّر فرويد هذا الاختلاف برغبة العبرانيين في إخفاء حقيقة البطل الذي كانوا يعتقدون فيه، وأنَّه لم يكن عبرانياً بل كان مصرياً.

من جهة أخرى تساءل فرويد: كيف يمكن للأميرة المصرية (أي ابنة فرعون) أنْ تعرف العبرية حتى يصبح معنى اسم (موسى): المنتشل من الماء. ورأى فرويد أنَّ كلمة (موسى) كانت تستخدم كاسم عَلَم في مصر بمعنى(الابن)،ومن ذلك: أنَّ تحتموس أصله: تحوت + موسى، وأنَّ رعمسيس أصله: رع + موسى،...إلخ. وقرَّر فرويد نشر هذه الأفكار في كتاب حمل فيما بعد اسم: (موسى والتوحيد).([28])

وقد انزعج بعض المثقفين المصريين عندما صدر كتاب فرويد سنة 1939م؛لأَن هذا التفسير لفرويد نسف الاعتقاد السائد عندهم منذ آلاف السنين بأنَّ موسى كان يهودياً أباً عن جد. ولم يكن المثقفون المصريون الوحيدين الذين

([28]) ـ فرويد، سيجموند، ترجمة ودراسة عبد المنعم الحفني، نشر: دار الرشاد، القاهرة، الطبعة الأولى، 1411هـ/ 1991م.ص 26 وما بعدها.

أزعجهم كتاب فرويد ، بل كان بين المنزعجين اليهود الصهاينة. فقد زار حاييم وايزمان رئيس الحركة الصهيونية فرويد في منزله بحي هامستد بلندن ، وطلبَ منه عدم نشر هذا الكتاب وحذَّره مما يمكن أنْ يحدث له لو أنَّه قام بنشره.
ولكن فرويد صمم على نشر كتابه، وقال لأصدقائه إنَّه أفضل عمل تنتهي به حياتُهُ. وبالفعل بعد ستة أشهر من نشر الكتاب جاء صديق فرويد الصهيوني الدكتور" ماكس شيبر" من الولايات المتحدة الأميركية واقترح على فرويد ـ الذي كان يعاني من بعض الآلام في عظام فكه العلوي ـ إجراء عملية جراحية في فكه بحجة وجود خلايا سرطانية. وبعد إجراء العملية أُجْرِيَت فحوص لفرويد، فلم يتم العثور على الخلايا السرطانية المزعومة، لكن فرويد صار في حالة مستمرة من الألم بسبب كسر عظام فكه.فقرَّر ماكس شيبر إراحته من آلامه فأعطاه (2مللغرام) من المورفين تحت الجلد...وسرعان ما هدأ وراح في نوم عميق، ثمَّ كرَّر له هذه الجرعة بعد 12 ساعة ، فكان فرويد اقترب من نهايته وراح في غيبوبة لم يستيقظ منها بعد ذلك. ومات في الثالثة صباحاً من صباح 23أيلول (سبتمبر)1939م. وكان صديق فرويد الدكتور ماكس شيبر يعلم أنَّ نصف هذه الكمية من المورفين كفيلة بإسكات قلب صديقه إلى الأبد، وهكذا دفع فرويد حياته ثمناً لآرائه الجريئة.

3 ـ قصة أيوب:

أولاً ـ قصة أيوب البابلية:

القصة هي عبارة عن قصيدة بابلية عنوانها:(لأمجدنَّ ربَّ الحكمة)، و المقصود بربِّ الحكمةِ أو سيِّدِ الحكمة هو الإلهُ مردوخ، وبطل هذه القصة هو أحد وجهاء مدينة بابل اسمه (شبسي_مشري_نرجال)، وتشيرُ الخصائصُ اللغوية للقصة إلى أنَّ زمن تدوينها يرقى إلى النصف الثاني من الألف الثاني قبل الميلاد، ويبلغ مجموع أبياتها زهاء خمسمئة بيت، وقد دوِّنت في الأصل على أربعة ألواح. الباحثون يطلقون على هذه القصة عنوان(أيوب البابلي) و ذلك بسبب الشبه الكبير بينها و بين قصة النبي أيوب التوراتية، مع العلم أن هناك قصة سومرية مماثلة تسبق هذه القصة بعدة قرون.

ملخص القصة: ([29])

نُظِمَت القصةُ على هيئة مناجاةٍ فردية لشخص صالحٍ متعبِّدٍ نزلت به، رغم تلك الويلات والكوارث. إذ يقول بعد مقدِّمة أو ديباجةٍ لم يبقَ منها سوى تمجيد الإله (مردوخ): " لم أعرف في حياتي سوى العمل الصالح و العبادة، و شغلت أفكاري بالتضرع إلى الآلهة والتضحية والتقرب إليها، و كانت عبادة الآلهة سروراً لقلبي و الأيام التي أسير فيها في مواكب الآلهة مكسبي و نصري في الحياة، ويبعث تمجيدُ الملكِ المسرةَ لقلبي، والموسيقى التي تُعْزَفُ له مثارَ غبطتي وسروري. و ألزمتُ أهلي و أتباعي مراعاة شعائر الآلهة و عبادتها، و علَّمتُ الجندَ طاعة القصر؛ لأن هذه الأعمال تسرُّ الآلهة...".

ولكن رغم صلاحه و تقواه نزلت بساحته المصائبُ و النكباتُ، فقد تخلَّت عنه الآلهة، وغضب عليه الملكُ و تآمرت عليه الحاشيةُ وأصبحَ وحيداً منبوذاً، و فتكت بجسمه الأمراض:" لقد تمكن مرض(أنو) من جسمي و غطَّاه كالرداء، أذناي مفتوحتان و لكنهما لا تسمعان، و أصاب جسمي الضعف و الوهن و أصبح السوط المسلط عليّ يرعبني و يعذبني، و صار معذبي يطاردني في النهار و يسلبني الراحة في الليل. لقد خذلني الإله و لم يتقدَّم إلهٌ لعوني، و لم تعطف عليَّ آلهتي فتخلصني من مصائبي، حسبني الجميع أنني ميت، كأن القبرَ مفتوحٌ أمامي، فنهبوا أموالي و فرحَ بي حسَّادي و شمتَ بِي أعدائي و لم يستطعْ السحرةُ و المشعوذون مساعدتي ... " .

([29]) ـ يُنظر: باقر، طه، مقدِّمة في أدب العراق القديم، منشورات جامعة بغداد، كلية الآداب، 1396/ 1976، ص 147ـ 150.

و رغم ذلك نجد أنَّ هذا العبد الصالح بقي مؤمناً بعد هذا الامتحان من الآلهة لاختبار صبره و معرفة درجة تعلقه بالآلهة و الالتزام بأحكامها و قبول أقدارها و لذلك ، قررت الآلهة إعادته إلى حالته السابقة من الصحة و الثروة و الجاه بعد أن رأى في منامه ثلاثة أحلام، ظهر له في أحدها شابٌ جميلٌ، ولانخرام النص لا يُعلم ماذا أراد الشاب أنْ يبلِّغه. وفي الحلم الثاني رأى ـ كذلك ـ شاباً جميلاً أجرى له التعاويذ و الرقي لطرد الشر و إنهاء عذابه و كذلك ظهرت له في الحلم الثالث امرأة كأنها الملكة أو الآلهة، بشرته بقرب خلاصه، ثم ظهر له كاهن من بعدها يحمل لوحاً مبعوثاً من الإله نُقشَت عليه كتاباتٌ تحملُ له الخلاصَ والرخاء، و كانت هكذا خاتمة هذه القصيدة.

ثانياً ـ قصة أيوب التوراتية:

أمَّا فيما يتعلَّق بقصة أيوب كما وردت في كتاب العهد القديم، فقبل أنْ نذكر ملخص هذه القصة، لا بدَّ لنا من الإشارة إلى أنَّ اليهود تمكنوا طيلة عشرين قرناً الماضية، من تكريس الكثير من المفاهيم المغلوطة القائمة على التحريف والانتساب المزوَّر للحوادث والشخصيات التاريخية، من أجل أنْ يجعلوا لهم امتداداً تاريخياً مرتبطاً بحضارات العالم القديم، وعلى الأخص الحضارتين، العراقية والمصرية العريقتين. كما أنَّ أحبار اليهود اقتبسوا من تواريخ الأقطار المجاورة لهم فهوَّدوا كل المعلومات والحكايات، التي رأوا فيها فائدة بعد أنْ زوَّروها.

ملخص القصة:

تروي القصة حكاية أيوب، وهو أحد شخصيات كتاب العهد القديم، ورد ذكره في سفر مكوَّنٍ من اثنين وأربعين إصحاحاً يحملُ اسمه. تعدُّه الأعراف اليهودية من الشخصيات التاريخية. ولدَ في حوران، بالقرب من دمشق، في الحقبة الزمنية الواقعة بين إبراهيم الخليل وموسى عليهما السلام. كان ثرياً ومقتدراً. أراد الله تعالى أنْ يمتحنَ صبرَهُ فأفقده أبناءَهُ، وأمواله، وأوقعه في بؤسٍ كبير. فكانت ردَّةُ فعلِ أيوبَ جملةً أصبحت مأثورةً: (الله أعطى والله أخذ، ليكن اسم الرَّبِ مباركاً). وقد استحقَّ بذلك أنْ يعيدَ إليه الرَّبُ أضعافَ ما أخذَ منه. ويميلُ علماءُ الكتابِ المقدَّسِ الحديثون إلى الاعتقاد بأنَّ شخصيةَ أيوب، هي من نتاج الأدب السامي السابق لجدود العبرانيين. والحقيقة أنَّ نسبة قصة أيوب إلى أصلٍ عربي رأيٌ قال به بعض النقاد المتخصِّصين في دراسات العهد القديم وفي الدراسات العربية. فالمعجم الخاص بالعهد القديم الذي وضعه العلامة (جزينيوس) يعرِّف أيوب بأنَّه عربيٌّ تعريفاً مباشراً ليس فيه لَبْسٌ، والمستشرق ألفرد جيوم كتبَ مقالاً بعنوان:(الخلفية العربية لسفر أيوب)، وكذلك ردَّ مرجليوث السفر إلى أصول عربية.([30])

المقارنة:

من خلال قراءة القصتين البابلية والتوراتية نخلصُ إلى جملة من الاستنتاجات التي تتفق فيها القصتان، والتي يمكن أنْ نوجزها بالآتي:

1 ـ محور الحديث في كلٍّ من القصتين رجلٌ تقيٌّ ورعٌ له ثروةٌ كبيرةٌ ومكانةٌ مرموقةٌ، ولكنْ على حين غرَّة تتوالى عليه الكوارثُ وتنتابهُ المحن، فتتحطَّم كلُّ آماله، وتضيعُ كلُّ ثروته.

2 ـ البطل في كلٍّ من القصتين يُبتلي بداء عضال، يؤدي إلى فقدان مكانته الاجتماعية المرموقة.

3 ـ لقد كان الصبرُ خلال مرحلة العذاب الطويلة، والإيمانُ المطلق بالعدالة الإلهية صفتين بارزتين في سلوك الرجل المعذَّب في القصتين البابلية والتوراتية.

([30]) ـ يُنظرُ:حسن أحمد، د. محمد خليفة، رؤية عربية في تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته، ، نشر: دار قباء للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة، 1998م، ص: 106.

4 ـ يتضح من خلال التمعن في القصتين البابلية والتوراتية أنَّ العذاب الذي تعرَّض له البطل تكمن وراءهُ الآلهة في القصة البابلية، والرب الذي أسلم أيوب إلى الشيطان في القصة التوراتية.

5ـ تنتهي القصتان بالفرج، وعودة البطل إلى ما كان عليه من قبلُ، وتقديمه الأضاحي والقرابين للآلهة عرفاناً بالجميل.

ولعلَّ هذا التشابه بين القصتين، الذي يصل حدَّ التطابق، يدفعنا إلى القول بأنَّ ما تضمنته أسفار العهد القديم من قصص وأساطير وشرائع، إنَّما يرجع أصله إلى المدونات السومرية، والبابلية، والآشورية ، وأنَّ اليهود اقتبسوا منها ما ينفعهم، وحذفوا كلَّ ما لم يلقَ استحسانهم، وليس أدلُّ على ذلك من أنَّ كتبةُ اليهود نسبوا قصة أيوب إلى مدوناتهم الدينية، ولم يذكروا مصدرَ الاقتباس.

4 ـ قصة خروج آدم وحواء من الجنة:

عرضت التوراة قصة خروج آدم وحواء من جنَّة عدن في الإصحاح الثاني من سفر التكوين. وملخص القصة التوراتية أنَّ الحيَّةَ أغرت حواء لتأكل من الشجرة التي في وسط الجنة، التي كان الربُ الإلهُ قد نهى آدمَ وزوجتَهُ عن الأكل منها، فأكلت حواء من الشجرة ، وأطعمت آدم أيضاً، فانفتحت أعيُنُهُما وعلما أنَّهما عريانان، فخاطا أوراقَ تينٍ وصنعا لأنفسهما مآزر. ولما سمعا صوت الرب ماشياً في الجنَّة اختبأ آدم و زوجته من وجه الرب، وعندما سأل الرَّبُ آدمَ عن سبب اختبائه أجاب: إنَّه عريان، فقال الرَّبُ: ومن أعلمكَ أنَّك عريان، هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك ألاَّ تأكل منها؟ فقال آدم: المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة، فأكلتُ. وتنتهي القصة بأنْ قال الربُ الإله: هو ذا الإنسان قد صار كواحدٍ منا عارفاً الخيرَ والشرَ، والآن لعلَّه يمدُّ يدهُ ويأخذُ من شجرة الحياة ويأكلُ ويحيا إلى الأبد. فأخرجه الربُّ من الجنة ليعملَ الأرض التي أُخِذَ منها.

هذه القصة لها أيضاً أصلها في الأدب السومري والبابلي. فقد عُثِرَ على أختام اسطوانيةٍ كبيرةٍ جداً في أثاريات سومر وبابل التاريخية، وقد نُقِشَ على هذه الأختام رسماً يُمَثِّلُ رجلاً وامرأةً جالسين في شكلٍ متقابلٍ، ويمثلان آدم وحواء، وبينهما شجرة النخيل التي تمَثِّلُ شجرة المعرفةِ، أي معرفة الخير والشر يتدلَّى منها عناقيد ثمرة البلح. وخلفَ المرأةِ تنتصبُ الحيَّةُ تحاولُ إغراءَ حواء على الأكل من الثمر، وارتكاب الخطيئة، وتبدو هي وآدم وهما يتناولان الثمرَ المفترضَ أنَّهُ مُحرَّمٌ عليهما.

وهذا الرسمُ على الأختام وُجِدَ أيضاً على الجدران في القصور والأماكن العامة في أثاريات سومر وبابل، التي لا تدعُ مجالاً للشك بأنَّها تمثِّلُ أقدمَ أثرٍ لقصةِ خروجِ آدم وحواء من جنة عدن.([31])

د ـ الشيقل:

من المسمَّيات التي أخذها اليهود عن حضارات بلاد الرافدين كلمة (الشيقل)، وهو العملة المستخدمة في الكيان الصهيوني اليوم كعملة وطنية، وكأنه من تراثهم وتاريخهم، وتكتب بالعبرية(שֶׁקֶל وتلفظ: شِكِل)؛ لأنَّ القاف في العبرية الحديثة تلفظُ كافاً بصورة دائمة. وبالعودة إلى كتاب العهد القديم، ولاسيَّما الإصحاح الرابع والعشرين من سفر التكوين(الفقرة 22) نجد ما نصُّه: (וַיְהִי כַּאֲשֶׁר כִּלּוּ הַגְּמַלִּים לִשְׁתּוֹת וַיִּקַּח הָאִישׁ נֶזֶם זָהָב בֶּקַע מִשְׁקָלוֹ) = (وحَدَثَ عندما فَرَغَت الجِمَالُ من الشربِ أنَّ الرجلَ أخذَ قَرَطَ ذهبٍ وزنه نصفَ مثقال). كما وردت هذه الكلمة في سفر صموئيل الأول في الإصحاح السابع عشر، في الفقرتين

([31]) ـ يُنظر: قاشا، سهيل، بابل والتوراة،ص 196.

الخامسة والسابعة. وحقيقة الأمر أنَّ (الشيقل) هو وحدةُ وزنٍ لا علاقة لكتبَةِ التوراة بها وبمنشئها على الإطلاق؛ لأنَّ هذه الكلمة مأخوذة من التراث البابلي الذي عرفه اليهود بعد سبيهم إلى بابل، وهو يلفظ في الأكادية(**šiqlu**) ويساوي: (8:5) غرام من الفضة.([32]) والكلمة مازالت مستخدمة في لغتنا العربية حتى اليوم، ومنه: ثقل، ومثقال: أي وزن. وقد وردت هذه الكلمة في مواد عدَّة من شريعة حمورابي، من ذلك مثلاً المادة (259) من القانون التي تنصُّ على أنَّه: (إذا سيِّدٌ سرقَ محراثاً من الحقل فعليه أنْ يعطي خمسة شقلات من الفضة لصاحب المحراث).([33]) والمواضع التي ذُكر فيها (الشيقل) في شريعة حمورابي عديدة ونكتفي بما أوردناه للتدليل على أنَّ الشيقل أخذه اليهود عن الحضارة البابلية أثناء وجودهم في بابل، فاستخدموه وكأنَّه من تراثهم دون الإشارة إلى أصله.

خاتمة:

لعلَّه من خلال عرضنا السابق يتضح أنَّ الأخبار التي أوردها اليهود في كتابهم المقدَّس، أي كتاب العهد القديم، والتي استندوا فيها إلى الرواية المتناقلة، لا يمكن أنْ تكون تاريخاً موثوقاً يمكن الركون إليه؛ وذلك لأنَّ اليهود كرَّسوا من خلال كتاباتهم هذه الكثيرَ من المفاهيم المغلوطة التي تقوم على التحريف والتزوير للشخصيات التاريخية؛ لكي يجعلوا لهم امتداداً تاريخياً مرتبطاً بحضارات العالم القديم. كما يتضح من خلال البحث مدى تأثير آداب بلاد الرافدين على آداب العبرانيين، ويكشف مدى ما أخذته التوراة من الحضارة البابلية، وعمق ما تأثرت به.

([32]) ـ يُنظر: الجبوري، د. علي ياسين، قاموس اللغة الأكدية ـ العربية ، نشر: هيئة أبو ظبي للثقافة والتراث، 2009م، ص 617.

([33]) ـ يُنظر: شريعة حمورابي،ص 68.

Sources and references

● Abdel Tawab, Dr. Ramadan, Introduction to the Science and Methods of Linguistic Research, Publisher: Al-Khanji Library, Cairo, 3rd Edition, 1997 AD.
● Abu Al-Saud, Salah, The Story of the Flood, Published: Dar Al-Window, Giza, Egypt, First Edition, 2009 AD, pp. 155-183.
● Alssawah , Firas:
- The Biblical Event and the Ancient Near East, published: Aladdin House, Damascus, Third Edition, 1997 AD, p.5.
- The first adventure of the mind, published by Dar al-Kalima, Damascus, 1988 AD, pp. 185-195.
● Al-Jubouri, Dr. Ali Yassin, Akkadian Language Dictionary - Arabic, published: Abu Dhabi Authority for Culture and Heritage, 2009 AD.
● Baqer, Taha:
- Introduction to the literature of ancient Iraq, Baghdad University Publications, College of Arts, 1396/1976, pp. 147-150.
- The Gilgamesh Epic, Second Edition, Baghdad, 1971.
● Edward Kira, written on clay, translation and commentary by: Mahmoud Hasan Al-Amin, review: Ali Khalil, published: Dar Al-Mutanabi Library, 2nd Edition, Baghdad, 1964, pp. 135-149.
● Freud, Sigmund, translated and studied by Abdel Moneim El-Hefny, published: Dar Al-Rashad, Cairo, first edition, 1411 AH / 1991 AD, p. 26 and after.
● Hbo, Ahmad Erhim, Introduction to the Syriac language - Publications of Tishreen University, Faculty of Arts, 1989-1990.
● Hassan Ahmed, Dr. Muhammad Khalifa, An Arab Vision in the History and Civilization of the Ancient Near East, published: Dar Quba Printing, Publishing and Distribution, Cairo, 1998, p .: 106.
● Qasha, Suhail:
- The impact of Babylonian writings on the Biblical records, published: Bisan for Publishing and Distribution, Beirut, Lebanon, first edition, 1998 AD, pp. 208-213.
- Babylon and the Torah, published: Dar Abaad, Beirut, Lebanon, first edition, 1911, p. 59.
- The wisdom of Ahikar and its effect on the Holy Book, Dar Al-Mashriq, Beirut, First Edition, 1996 AD, pp. 10-11.
● Sanders, The Epic of Gilgamesh, translated by: Muhammad Nabil Nofal and Farouk Hafez al-Qadi, Dar al-Maarif, Cairo, 1970 AD, p. 11 and after.
● Sharia of Hammurabi, translated by: Mahmoud Al-Amin, first edition, publisher: Dar Al Warraq Publishing Company Ltd., 2007 AD, p. 56.
● The Holy Quran.
● The Holy Book (Old and New Testament), House of the Bible, Helmy House for Printing, Cairo, 1970 AD.
● The Bible Dictionary, issued by the Family Library, under the supervision of the Evangelical Churches Association in the Middle East. Fourteenth edition, printed at Al-Hurriya Press - Beirut, Lebanon, 2001 AD, p .: 836.